

أسلوب السخرية في النقد العربي القديم من خلال كتاب: "الكشف عن مساوئ المتنبي للصاحب بن عباد"

الاسم: محمد بن أحمد المختار

اللقب العلمي: دكتور في الأدب العربي

جهة العمل: عمل أستاذا متعاوناً بجامعة انواكشوط

البريد الإلكتروني: sidim11@yahoo.com

كلمات مفتاحية: السخرية، المتنبي، النقد العربي القديم، الصاحب بن عباد، مساوئ شعر المتنبي.

Keywords: Irony, of Al-Mutanabbi, classical Arabic literary criticism, Al-Sahib Iben Abbad, Al-Mutanabbi's poetry defects

المخلص:

هذا البحث محاولة لدراسة أسلوب السخرية في النقد العربي القديم، وهو أسلوب لم نجد من خصه بالدراسة قديماً أو حديثاً، رغم رسوخ قدمه، وقوة حضوره في النقد العربي القديم، ولعل هذا السبب وحده كاف لتسويغ تناوله، وهو أسلوب له قدرة كبيرة على إبراز العيوب، والتنفير منها رغم ما يؤخذ عليه من ميل عن العدل والإنصاف، وقد تناولنا البحث من خلال تمهيد وثلاثة محاور وخاتمة، حيث تناولنا في التمهيد مفهوم السخرية، فعرفناها في اللغة والاصطلاح، وحاولنا التمييز بينها وبين الأساليب القريبة منها دلالياً. وفي المحور الأول تناولنا الموازنة التشبيهية المجحفة، وهي موازنة أقامها الناقد بين أشعار المتنبي وبين غيرها من النصوص لترجح كفة الثانية بالأولى، وفي المحور الثاني تناولنا الذم بما يشبه المدح، وهو طريقة ساخرة انتهجها صاحب بن عبّاد كثيراً في نقده لنصوص المتنبي، وفي المحور الثالث تناولنا المبالغة في الانتقاص والسب، وهي من الأساليب الساخرة التي اتبعها صاحب في نقد شعر المتنبي، وتبيان مساوئه. وفي الختام جننا بخاتمة سجلنا فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وألحقنا بها قائمة المصادر والمراجع.

Summary:

This research tends to study the style of irony in classical Arabic literary criticism, a method which has not been explored in ancient nor contemporary studies, Although it is firmly embedded, and strongly present in the classical Arab literary criticism, perhaps this reason alone is enough to justify the exploration of this subject, this method is very efficient in highlighting the defects and denigrating the subject. Despite that, it has the disadvantages of being mostly unjust and unfair.

The research is divided into 3 parts; an introduction and the conclusion, in the introduction we approached the concept of irony by definition in both lexicology and terminology, and tried to distinguish it from other similar methods. In the first part we discussed the unjust comparison, a balancing that the critic struck between Al-Mutanabbi's poetry and other texts to swing the second cuff by the first, In the second part, we reviewed the asteism , which is a cynical way that Al-Sahib Iben Abbad has taken so much in his critique of the texts of Al-Mutanabbi, In the third part, we have shifted through the over-detraction and insult, which is one of the irony methods used by Al-Sahib Iben Abbad to criticize and demonstrate the disadvantages of Al-Mutanabbi.

Finally, we came to a conclusion where we recorded the most important findings of the research and listed the sources and references.

1 - تمهيد:

السخرية في اللغة الاستهزاء من الشيء، أو معاملته على وجه الاحتقار والاستدلال، يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي: "سَخِرَ منه وبه، أي: استهزأ. والسُّخْرِيَّةُ: مصدر في المعنيين جميعاً، وهو السُّخْرِيُّ أيضاً ويكون نعنا كقولك: هم لك سِخْرِيٌّ وسُخْرِيَّةٌ، مذكر ومؤنث من ذَكَرَ قال: سِخْرِيٌّ، ومن أنت قال: سُخْرِيَّةٌ. والسُّخْرَةَ: الضُّحْكَةُ..."¹. ويقول ابن فارس: "السُّيْنُ وَالْحَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ مُطَرِّدٌ مُسْتَوِيٌّ يَدُلُّ عَلَى احْتِقَارٍ وَاسْتِدْلَالٍ"².

ومن أجل تجلية مفهوم السخرية سنحاول توضيح الفروق بينها وبين الألفاظ القريبة منها دلاليًا كالفكاهة والتهمك والهزاء، أما الفكاهة فهي تشترك مع السخرية في أنهما من جوالب الضحك، لكن السخرية تمتاز بأن الغرض منها إيلاء المسخور منه، والاستهزاء به، خلافاً للفكاهة التي تقتصر على مجرد الإضحاك، يقول نزار عبد الله خليل الضمور: "ويمكن أن نعد الفكاهة والسخرية من حالات الضحك، حيث يخلط كثير من الناس بينها، ولا يكادون يفرقون بينها حين يشملهم الجو المرح الضاحك، وتتبعث من أفواههم النكات التي يمكن أن تكون لمجرد الإضحاك فحسب، وحينئذٍ فهي الفكاهة، وقد تكون بقصد اللذع والإيلاء فهي سخرية"³

أما السخرية والهزاء فإنهما يمتزجان من ناحية الوظيفة، ولكنهما يفترقان من ناحية المادة، أو الطبيعة التي يشتمل عليها كل منهما، فالهزاء طريقة مباشرة في الهجوم على العدو، فهو أدب الغضب المباشر، والثورة المكشوفة، ولكن السخرية طريقة غير مباشرة في الهجوم، إنها أدب الضحك المقاتل، والهزء المبني على شيء من الالتواء والغموض⁴

أما التهمك فالظاهر أنه نوع من السخرية إذ يتحد معها في الوسيلة والهدف، تقول فائق حسين ناجي: "التهمك هو الكلام الذي يذكر في غير سياق التواصل المتعارف عليه، بهدف النيل سلباً من مقولة أو

¹ - الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج/4، ص:196

² - ابن فارس، أحمد معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ، 1979م، ج/3، ص:144

³ - الضمور، نزار عبد الله خليل، السخرية والفكاهة في النثر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رسالة الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، 2005م، ص:7.

⁴ - الضمور، نزار عبد الله خليل، السخرية والفكاهة في النثر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص:8

فكرة أو معتقد، أو كائن، فيكسر تواتر مسار الحديث من مسار الجد إلى مسار الهزل، وهو فن يرسم الضحكة على الوجوه، ولكنه يورث جرحاً وينوي شراً...⁵

أما المقصود بأسلوب السخرية في النقد فهو طريقة في معالجة النصوص تميل إلى إبراز العيوب إبرازاً يثير الضحك، و إلى الاستهزاء من النص وصاحبه؛ والنيل من أحدهما أو كليهما نيلاً عنيفاً.

وإذا كان صوت السخرية ظل خافتاً في الأحكام النقدية التي صاحبت الشعر الجاهلي⁶، فإنها أصبحت - بعد ذلك - ظاهرة في القرن الثالث والرابع، وبرز أدباء في العصر العباسي يتخذون من السخرية وسيلة لإبراز رؤاهم⁷، ونشر أفكارهم.

وقد أسهم النقد المتكئ على الخصومة بين القدماء والمحدثين، والنقد المنبثق من الموازنة بين الشعراء في إذكاء نار السخرية، لكنها ظلت لدى النقاد وسيلة من وسائل النقد والتقويم التي يوظفها الناقد حين يعظم استقباحه للفظ أو صورة، أو حين يطوف به طائف من الغضب أو الحقد، فيصمه ويعميه، من أجل ذلك ظلت لمحات السخرية تظهر هنا وهناك لدى النقاد⁸.

⁵ - ناجي، فائق حسين مفهوم التهكم في نصوص محمد الماعوط المسرحية، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد: 4، العدد: 1، ص: 213

⁶ - ومن تلك الأحكام القليلة التي خرجت مخرج السخرية قول طرفة للمسبب: "استنوق الجميل"، وقد تنبه طه إبراهيم إلى البعد السخري في ملاحظة طرفة فقال: "ولن نستطيع أن نخلي طرفة من السخرية بالتمسك" إبراهيم، طه أحمد، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، الفيصلية، 1425هـ/2004م، ص: 31

⁷ - لقد اتخذ الجاحظ من السخرية وسيلة لنشر أفكاره، واشتهر بأسلوبه التهكمي، وهناك دراسات مستقلة ألفت في سخريته، منها كتاب: حسين عبد الحليم محمد، السخرية في أدب الجاحظ، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1397هـ/1988م. ومنها كتاب: أحمد، عزت السيد التهكم وفن الإضحاك عند الجاحظ، العالم العربي للنشر، عمان، ط1، 2017م.

⁸ - تنتشر مثل هذه الأحكام النقدية في القرن الثالث والرابع، فمن ذلك مثلاً تعليق الأصمعي على قول الشاعر:
فما للنوى جد النوى قطع النوى *** كذاك النوى قطاعة لوصول

حيث قال: "لو سطر الله على هذا البيت شاة لأكلت هذا النوى كله"، يمكن النظر في كتاب: ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب (ت: 385هـ)، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1385 هـ / 1965 م، ص: 52

وقول الجاحظ معلقاً على بيتين استجادهما أبا عمرو الشيباني: "وأنا أزعم أنّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً. ولولا أن أدخل في الحكم بعض الفتك؛ لزعمت أنّ ابنه لا يقول شعراً أبداً"، يمكن النظر في كتاب: الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء، اللبثي، أبو عثمان (ت: 255هـ)، الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424 هـ، ج/3، ص: 67

أما الأمدي فتتكرر الأحكام النقدية الساخرة في كتابه تكررًا لافتاً، من ذلك قوله مثلاً منتقداً قول أبي تمام: "وقوله: [ملطومة بالورد] يريد حمرة خدها: فلم لم يقل مصفوعة بالقار ويريد سواد شعرها، ومخبوطة بالشحم يريد امتلاء جسمها، ومضروبة بالقطن يريد بياضها؛ إن هذا لأحمق ما يكون من اللفظ وأسخفه وأوسخه"، يمكن النظر في كتاب: الأمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر (ت: 370 هـ)، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط4، ج/2، ص: 93.

ويعد صاحب بن عباد الناقد الوحيد الذي كتب رسالة نقدية كاملة بأسلوب ساخر؛ حيث تجلت السخرية في جل أحكامه النقدية، واصطبغ الكتيب كله بأسلوب سخري.

لقد أراد صاحب بن عباد أن يشارك في محاولة قتل شاعرية المتنبي، فجعل السخرية وسيلته لبلوغ هذه الغاية، ورغم تشابه نقاد المتنبي وحاسديه في إغضائهم عن محاسنه، وتضخيمهم لعيوب شعره، فإن صاحب كان أضيقيهم صدرا وأقلهم صبورا، حيث "ذهب في التهكم كل مذهب، واستعمل السباب الجارح، وكد قريحته ليتفنن في التعليق الساخر، فكان نسيج وحده في هذا المضمار لم يبلغه الحاتمي في حدة الانفعال، ولا شأى شأوه العميدي في التعليقات التهكمية"⁹

لقد اقتصر صاحب على مساوئ شعر المتنبي، فوقف عندها ليكشف مساوئ الأبيات التي أشار إلى عيوبها جل نقدة المتنبي؛ لكن إبداع صاحب يتجلى في قدرته على رسم هذه العيوب بريشته الفنية الساخرة، لتخرج في رسالته أقبح وأشنع، والساخر "رسام ماهر يثير إعجابنا بتلك الصور التي يرسمها لمهجويه، صحيح أنه يصور القبح والنقائص، ويصدر عن عاطفتي الغضب والبغض في بعض الأحيان، ولكننا ينبغي ألا نجمد عند هذا الأمر، فلا نصرف أنظارنا عنه بل يجب أن نلتفت إلى تلك المقدره الفنية التي استطاع بها هذا الساخر أن يعبر عما في نفسه من مشاعر"¹⁰

ويمكن أن نتتبع تجليات الأسلوب السخري من خلال ثلاثة محاور هي: الموازنة التشبيهية المجحفة، والذم بما يشبه المدح، والمبالغة في الانتقاص والسب.

2- الموازنة التشبيهية المجحفة:

لا يكاد يخلو حكم نقدي من الموازنة، فكلما عثر صاحب على عثرة للمتنبي وقف عندها ليوازنها بما من شأنه أن يجلي قبحها ويزيده ورما وانتفاخا، فأحيانا يوازنها بما يشاكلها في القبح، وأحيانا يوازنها بما بلغ الغاية في الحسن والجمال ليعرض عوارها بارزا لا تخفى منه خافية، ويتجاوز في بعض الأحيان الهنة إلى الشاعر المنفود، فيوازنه بغيره موازنة مشحونة بالاستهزاء والاحتقار.

⁹ - إحصان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط/4، 1983م، ص: 275/274.

¹⁰ - الغزالي، شعيب بن أحمد بن محمد عبد الرحمن، أساليب السخرية في البلاغة العربية، دراسة تطبيقية تحليلية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، إشراف: عبد العظيم إبراهيم المطعني، 1414هـ، ص: 6.

يحاول صاحب - في بداية كتابه النقدي - أن ينتقد التفاوت الجمالي في بيت للمنتنبي فيقول:
" فأول حديث المنتنبي أن لا دليل أدل على تفاوت الطبع من جمع الإحسان والإساءة في بيت واحد
كقوله:

بَلِيْتُ بِلَى الْأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقْفْ بِهَا

وهذا كلام مستقيم لو لم يعقبه ويعاقبه بقوله:

وَأُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي الثَّرْبِ خَاتِمُهُ

فإن الكلام إذا استشف جیده ووسطه ورديئه كان هذا من أرذل ما يقع لصبيان الشعراء وولدان
المكتب الأدباء"¹¹

أراد صاحب أن يبين التفاوت بين شطري البيت، فأشار إلى حسن الصدر ورداءة العجز، لكنه لم
يحاول تبيان سر الرداءة كما فعل غيره من النقاد¹²، وإنما كان ذهنه مشغولاً بعظمة المنتنبي، فاهتبل
الفرصة لاحتقاره واستصغاره، وجعل يوازن بينه وبين صبيان الشعراء، وولدان الأدباء.

ولما وجد للمنتنبي بيتاً بعيد الدلالة عدّ غموضه ضرباً من التحايق¹³، وجعل يشبهه بغزل العجائز
ودلال الشيوخ، يقول: "وهذا التحايق منه كغزل العجائز قبحاً؛ ودلال الشيوخ سماجة، ولكن بقي أن
يوجد من يسمع"¹⁴

¹¹ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب (385هـ)، الكشف عن مساوي شعر المنتنبي، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بغداد، ط/1، 1385 هـ - 1965م، ص:44

¹² - لقد ذكر عبد العزيز الجرجاني ما قيل من نقد في هذا البيت فقال: " قالوا: أراد التناهي في إطالة الوقوف فيبالغ في تقصيره؛ وكم عسى هذا الشحيح بالغاً ما بلغ من الشح، وواقعاً حيث وقع من البخل أن يقف على طلب خاتمه، والخاتم أيضاً ليس مما يخفى في الثرب إذا طلب، ولا يعسر وجوده إذا فتش. " يمكن النظر في كتاب: الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي (392هـ)، الوساطة بين المنتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد الجاوي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط/1، 1427هـ/2006م، ص: 390

¹³ - البيت هو قول المنتنبي:
لئن كان بعض الناس سيفاً لدولة... ففي الناس بوقات لها وطبول
والظاهر أنه من الأبيات التي نام عنها المنتنبي ملء جفونه ليسهر الخلق جراها، ويختصم في شأنها، الشيء الذي يمكن أن نلاحظه من قول الزوزني، وهو يحاول تفسير هذا البيت: "أغفله أبو الفتح، ولم يفسره. قال الشيخ: ما كنت لأشرح ما أغفله، غير أنني رأيت كثيراً من المتكلمين بالأدب والمتكلمين في ديوان هذا الرجل يعيرون عليه ويكثرون في هذا البيت، وينعون، ويردون به عليه جهلاً منهم بمعناه، ومن جهل شيئاً عاداه، وغباوة منهم لأكثر معاني أبياته وقصور إفهامهم عن إدراك إبداعه، فشرحته ليرى به القادح فيه سقوطه وعجزه عن معانيه، وعساه يكف عن الوقعة في أعلام العلماء ونقيصة الفضلاء بضيق المعرفة وضعف الرأي...". يمكن النظر في كتاب: الزوزني، أبو سهل محمد بن الحسن العارض (445هـ)، قشر الفسر، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المناع، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط/1، 1427هـ/2006م، ج/2، ص:245

¹⁴ - الكشف عن مساوي شعر المنتنبي، مرجع سابق، ص:55

و حين وجد للمتنبى أبياتا غير مفهومة لم يحاول تقريب بعيدها، وتجليه خبئها، وإنما هدته السخرية إلى تشبيهها برقية العقرب¹⁵، وموازنتها بمصطلحات الصوفيين، فقال: "ومن شعره الذي ينتاهى له بالسلاسة؛ مع خلوه من الشراسة الموجودة في طبعه بيت رقية العقرب أقرب إلى الإفهام منه؛ وهو قوله:

نَحْنُ مَنْ ضَايِقَ الزَّمَانُ لَهُ فِي ***كَ وَخَائِنُهُ قُرْبَكَ الْأَيَّامُ

فإن قوله: له فيك لو وقع في عبارات الجنيد أو الشبلي لنتازعته الصوفية دهرًا طويلاً¹⁶

ويقول أيضا يصف غموض شعره ويشبهه بألفاظ الصوفي أبي يزيد البسطامي: "وكنت أتعجب من كلام أبي يزيد البسطامي في المعرفة؛ وألفاظه المعقدة؛ وكلماته المبهمة، حتى سمعت قول شاعرنا هذا في وصفه فرس:

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ ***سَبُوْحُ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا سَوَاهِدٌ"¹⁷

ويقول في موضع آخر مشبها شعر المتنبي بالرقى: "وله بيت لا أدري أمدح المقول له أم رقاؤه وهو قوله:

سَوَائِلُ تَسْوَالِ الْعَقَارِبِ بِالْقَنَا ***لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وَصَهِيلُ

ولا يقتصر صاحب على تشبيه المتنبي بالصبيان، ولا تشبيه شعره بما غمض من أدعية الراقين، ومصطلحات الصوفيين، وإنما يتجاوز ذلك ليشبه لغته بلغة "الرُّطِّ"¹⁸ (الأعاجم)، وبلغة "الحُكْل"¹⁹ (البهائم)، حيث يقول معلقا على قول المتنبي:

أَحَادُ أَمْ سُدَّاسٌ فِي أَحَادٍ ***أَلْيَلْتُنَّا الْمُنَوِّطَةَ بِالتَّنَادِي

¹⁵ - رقية العقرب: شيء غير مفهوم كانوا يرقون به من لدغته العقرب، فصار المثل يضرب به في الشيء الذي لا يفهم، وقد وردت ألفاظ هذه الرقية في لسان العرب، حيث قال: " وَقَالَ اللَّيْثُ: رُقِيَةُ الْعُقْرَبِ [شَجَّةٌ قَرْنِيَّةٌ مَلْحَةٌ بَحْرِيٌّ قَفْطِيٌّ]...، يمكن النظر في كتاب: ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفي الإفريقي (711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط/3، 1414 هـ، ج/7، ص:385

¹⁶ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص:45

¹⁷ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص:56

¹⁸ - الرُّطُّ: جيل من الناس؛ جنسهم السودان أو الهنود، يمكن النظر في كتاب: مرتضى الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني،

أبو الفيض (1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج/19، ص:322

¹⁹ - قال الزبيدي: " الحُكْلُ، بالضم من الحَيَوَانِ: مَا لَا يُسْمَعُ صَوْتُهُ كَالدَّرِّ وَالتَّمَلِّ. وَقِيلَ: العُجْمُ مِنَ الطُّيُورِ وَالبِهَائِمِ" يمكن النظر في المرجع السابق: ج/28، ص:317

"وهذا كلام الحُكْل ورطانة الرُّطِّ، وما ظنك بممدوح قد تشمر للسمع من مادحه فصك سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة والمعاني المنبوذة، أي هزة تبقى هناك، وأي أريحية تثبت إذ ذاك"²⁰ ولا يقف ابن عباد عند تشبيه شعر المتنبي بلغة الأعاجم أو البهائم، بل يتجاوز ذلك ليشبه شعره بالجماد، بل إنه يختار من بين الجماد ما كان على شفا الدروس والاندثار، حيث يقول: "ومن مساءلته الطلول البالية - وكلامه أشد منها بلى وأكثر أخلاقاً - قوله:

أَسْأَلُهَا عَنِ الْمُتَدَبِّرِ بِهَا *** فَلَا تُدْرِي وَلَا تُدْرِي دُمُوعًا"²¹

وفي سياق السخرية من المتنبي والغض من شعره نجد صاحب يوازن بين عثرات المتنبي، وبين عثرات غيره من الشعراء، ليبين تغلبه عليهم في مجال الركاكة، والضعف الفني، يقول معلقاً على قول المتنبي:

وَقَدْ دُفْتُ حُلُوءَ الْبَنِينِ عَلَى الصَّبَا *** فَلَا تَحْسِبْنِي قُلْتُ مَا قُلْتُ عَنْ جَهْلٍ

"وما زلنا نتعجب من قول أبي تمام:

لَا تَسْفِينِي مَاءَ الْمَلَامِ فَإِنِّي ... صَبُّ قَدِ اسْتَعْدَبْتُ مَاءَ بُكَائِي

فخف علينا بخلوء البنين..."²²

ويواصل في تشبيه استعارات المتنبي باستعارات أبي تمام ليسخر من الاستعارتين، ويهول من الإفراط والشطط في استعارة المتنبي حيث يقول: "وعهدت الأدباء وعندهم أن أبا تمام أفرط في قوله:

شَابَ رَأْسِي وَمَا رَأَيْتُ مَشِيْبَ الرِّ *** رَأْسٍ إِلَّا مِنْ فَضْلِ شَيْبِ الْفُؤَادِ

فعمد هذا إلى المعنى فأخذ ونقل الشيب إلى الكبد وجعل له خضاباً ونصلاً فقال:

إِلَّا يَشِبُّ فَلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ *** شَيْباً إِذَا خَضَّبَتْهُ سَلْوَةٌ نَصلاً"²³

²⁰ - الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص:63

²¹ - الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص:63

²² - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص:49

²³ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص:66

وفي سياق تنافر الكلمات، يوازن بين بيت متنافر لمسلم ابن الوليد، وبيت أقل تنافرا للمتنبّي، لكن تعصبه وانحرافه عن المتنبّي، جعله يميل عن الحق كل الميل، ويفضل بيت مسلم على بيت المتنبّي، حيث يقول:

" وكان الناس يستبشعون قول مسلم:

سَأَلْتُ وَسَأَلْتُ ثُمَّ سَأَلْتُ سَأَلِيهَا *** فَآتَى سَأَلِيهَا مَسْئُولًا

حتى جاء هذا المبدع بقوله:

وَأَفْجَعُ مَنْ فَجَدْنَا مَنْ وَجَدْنَا *** فُتَيْلَ الْفَقْدِ مَفْقُودِ الْمِثَالِ²⁴

ويتجلى أسلوب السخرية بصورة أكبر حين يوازن بين الأبيات المستقبة للمتنبّي وبين النصوص المستجادة لغيره، ومن ذلك تعليقه على قول المتنبّي:

وَلَا مَنْ فِي جَنَازَتِهَا تَجَارُ *** يَكُونُ وَدَاغُهَا نَفْضَ النَّعَالِ

" ولعل هذا البيت عنده وعند كثير ممن يقول بإمامته أحسن من قول القائل:

أَرَادُوا لِيُخْفُوا قَبْرَهُ عَنْ عَدُوِّهِ *** فَطَيْبُ تُرَابِ الْقَبْرِ دَلٌّ عَلَى الْقَبْرِ²⁵

ويقول معلقا على قول المتنبّي في صفة الخيل:

سَوَائِلَ تَسْأَلُ الْعَقَابِ بِالْقَنَا *** لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وَصَهِيلُ

"والذي لا أمتري فيه أن عالما من المناضلين عنه عندهم أن (سوائل تسوال) أبدع في وصف الخيل من قول امرئ القيس:

لَهُ أَيُّطَلَا ظَبْيِي وَسَاقًا نَعَامَةٍ *** وَإِرْحَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيْبُ تَنْفَلِ²⁶

²⁴ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبّي، مرجع سابق، ص: 48.
²⁵ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبّي، مرجع سابق، ص: 48/47.

ويعلق على قول المتنبي:

يَا مَنْ يُقِيلُ مَنْ أَرَادَ بِسَيْفِهِ** **أَصْبَحْتُ مِنْ قَتْلِكَ بِالْإِحْسَانِ
فيقول: "ومن هؤلاء العوام الذين يتهاكون فيه من هذا عنده أبداع من قول البحري:

أَحْجَلْتَنِي بِنَدَى يَدَيْكَ فَسَوَدَتْ ... مَا بَيْنَنَا تِلْكَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ
وَقَطَعْتَنِي بِالْوَصْلِ حَتَّى إِنِّي ... مُتَخَوِّفٌ أَنْ لَا يَكُونَ لِقَاءُ
صِلَّةٌ عَدَتْ فِي النَّاسِ وَهِيَ قَطِيعَةٌ ... عَجَبًا وَبِرٌّ رَاحَ وَهُوَ جَفَاءُ"²⁷
ويقول ساخرا من معانيه في الفخر موازنا بينها وبين فخر الفرزدق:

"ومن افتخاره بنفسه وما عظم الله من قدره قوله:

أنا عينُ المُسَوِّدِ الجَحْجَاحِ ... هَجَّنْتَنِي كِلَابِكُمْ بِالنُّبَاحِ

ولا أدري أهذا البيت أشرف أم قول الفرزدق:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا** **بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
بَيْتًا زُرَّارَةً مُحْتَبٍ بِفَنَائِهِ** **وَمَجَاشِيعُ وَأَبُو الْفَوَارِسِ نَهْشَلُ"²⁸

وغاية السخرية أن يوازن صاحب بين أبيات المتنبي وبين آيات من القرآن الكريم، حيث يقول بعد إيراد بيت المتنبي:

رَوَاقُ الْعِزِّ فَوْقَكَ مُسْبَطٌ** **وَمُلْكُ عَلِيٍّ ابْنِكَ فِي كَمَالِ

"... نَعَمْ وهذه القصيدة يظن المتعصبون له إنها من شعره نهاية كقوله عز وجل: [وَقِيلَ يَا
أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلُغِي وَغِيضَ الْمَاءِ] وكقوله: [فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ]"²⁹

ولو أن صاحب عمد إلى أحسن ما قال المتنبي وقارنه بأية آية من القرآن الكريم لبان ما فيه من
خلل واختلاف كثير، فكيف به إذا اختار المستقبح من شعر المتنبي ووازنه بالقرآن الذي هو غاية في
الحسن والكمال.

²⁶ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 54/55

²⁷ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 57/58

²⁸ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 66

²⁹ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 46

3 - الذم بما يشبه المدح:

يعد المدح بما يشبه الذم من أساليب السخرية البليغة، التي كانت - قديما - معروفة في ثقافات متعددة، تقول فتيحة...: "كان التضاد - في الأساس - المحور الذي تدور عليه تعاريف السخرية لدى الرومان، غير أنه لم يعد موصولا بالإيحاءات السلبية، كما كان الشأن عند الإغريقين، أما كينتليان "Quintilien" فقد ترجم "eroneia" بالوهم والخداع، وصنفها من أساليب الهزل التي تقترب من الفكاهة، وأضفى عليها سمة المجاز أو نوعا منه، حيث يدرك عكس ما تقوله الكلمات، فيسمى سخرية: على أن ما يعين على إدراكها يعود إلى نبرة التلفظ أو إلى الذات المتلفظة أو إلى مخاطبها أو إلى طبيعة الموضوع... إذ من الواضح أن الخطيب حريص على إفهام غير ما يقوله... ومن الجائز الذم بما يشبه المدح، والمدح بما يشبه الذم"³⁰

وينص أحد الباحثين على أن السخرية تقوم على التضاد كالمدح بما يشبه الذم ونحوه، حيث يقول: "التهكم: الاستهزاء أو السخرية، وهو ما كان ظاهره جدا، وباطنه هزلا، وإن التهكم عند المحدثين طريقة من طرق البلاغة، وهي أن تريد شيئا وتظهر غيره، أي أن تعبر عما تريد أن تقوله بقول مضاد له، فتجيء بالذم في قالب المدح، أو بالجد في قالب المزح، أو بالحق في قالب الباطل، والغرض من هذا التعبير المخالف للحقيقة تقويم السلوك بطريقة الفكاهة، وسرعة البديهة، لأن النفوس تستعذب الجد الذي يعرض عليها بثوب الهزل"³¹

ويقول عزت السيد أحمد مبينا هذا النوع من السخرية: "التهكم في أصل ما اجتمع له من اللغة هو الإزراء والعبث بالمتهم به، الذي يشترط أن يكون إنسانا...، والتهكم بما هو كذلك يقوم على إما على إرسال القول على غير وجهه، كأن تقول قولا وأنت تقصد ضده. ومن ذلك قولك: "عظيم"، وأنت تقصد: "ما أسوأ ذلك"، أو أن تقول: "<<خير ما فعلت>>، ومراك <<أسوأ ما فعلت>>... وغير ذلك من أمثاله"³²

³⁰ - فتيحة بلمبروك، خطاب السخرية ودلالاته في الشعر العربي المعاصر، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، ص: 21

³¹ - ناجي، فانتن حسين، مفهوم التهكم في نصوص محمد الماغوط المسرحية، ص: 215

³² - أحمد، عزت السيد، التهكم وفن الإضحاك عند الجاحظ، العالم العربي للنشر، عمان، ط/1، 2017م، ص: 89

وقد وصفت دلالة حمزة أحمد هذا النوع من السخرية المبني على التناقض بالتهكم اللفظي حيث قالت في تعريفه: "ويشتمل في أبسط صورته على ما لا يعنيه الفرد، هنا تكون الكلمات متناقضة مع المعنى كأن نقول عن شخص مثلاً: إنه رث الثياب شديد القذارة له مهابة الملوك"³³

ونجد حضوراً لتوظيف مثل هذا الأسلوب في الشعر العربي القديم، ومن ذلك قول الحطيئة للزيرقان بن بدر:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُعَيْتِهَا ... وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي³⁴

حيث أراد المطعوم المكسو³⁵

وورد هذا الأسلوب في القرآن الكريم كما نجد في قوله تعالى: [ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ]³⁶، حيث خاطبت الآية الكافر على سبيل الاستهزاء³⁷.

وقد دخل هذا الأسلوب التهكمي المبني على التناقض في مباحث البلاغة العربية، حيث سماه البلاغيون الاستعارة التهكمية، يقول السكاكي في تعريفه: "من الأمثلة استعارة اسم أحد الضدين أو النقيضين للآخر، بواسطة انتزاع شبه التضاد، وإحاقه بشبه التناسب، بطريق التهكم أو التمليح، على ما سبق في باب التشبيه، ثم ادعاء أحدهما من جنس الآخر، والإفراد بالذكر، ونصب القرينة، كقولك: إن فلانا تواترت عليه البشارات بقتله، ونهب أمواله، وسبي أولاده. ويخص هذا النوع باسم: الاستعارة التهكمية أو التمليلية"³⁸

³³ - حمزة محمد، دلالات الأبعاد النفسية لنزعة التهكم في تشكيل ما بعد الحداثة، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد: 29، ج: 2، 2018م، ص: 347

³⁴ - الحطيئة، ديوان الحطيئة، تحقيق: حماد طماس، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط/2، 1426هـ/2005م، ص: 86
³⁵ - لقد اختلف في تاويل البيت حتى اعتبره عمر غير هجاء، ورد في المخصص: "وقالوا رجل طاعم كاس على ذا أي ذو كسوة وطعام وهو مما يذم به: أي ليس له فضل غير أن يأكل ويكتسي" ابن سيده المصري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت: 458هـ)، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، ط/1، 1417هـ/1996م، ج: 4، ص: 400
³⁶ - سورة الدخان، الآية: 48

³⁷ - أشار كثير من المفسرين إلى البعد الاستهزائي في الآية، يمكن النظر في تفسير: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (450هـ)، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج: 5، ص: 258

³⁸ - السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي (626هـ)، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، 1407هـ/1987م، ص: 375

وقد أكثر صاحب في كتابه من استخدام هذا الأسلوب، فنجده يشيد بالمتنبي فيصفه بالإبداع والفضل، ويصف شعره بالتميز والسبق، ثم يورد من شعره الأمثلة الدالة على ضد ذلك من ضعف شعره، وتهافته، وغالبا ما يعلق عليها بما يدل على أن الذم هو الغرض المختبئ على وراء ما تقدم من المدح، يقول متحدثا عن أبيات من قصيدة يرثي بها المتنبي والدة سيف الدولة: " ولما أبدع في هذه المرثية واخترع قال:

صَلَاةُ اللَّهِ خَالِقَنَا حَنُوطٌ ... عَلَى الْوَجْهِ الْمُكَفَّنِ بِالْجَمَالِ

وقد قال لي بعض من يغلو فيه: هذه استعارة، فقلت: صدقت ولكنها استعارة حداد في عرس فلا أدري هذه الاستعارة أحسن؛ أم وصفه وجه والدة ملك يرثيها بالجمال؛ أم قوله في وصف قرابتها وجواربها:

أَتُنْهَنُّ الْمَصَائِبُ غَافِلَاتٍ ... فَدَمَعُ الْحُزْنِ فِي دَمْعِ الدَّلَالِ

ولما أحب تقريظ المتوفاة؛ والإفصاح عن أنها من الكريمات، أعمل دقائق فكره، واستخراج زبدة شعره، فقال:

وَلَا مَنْ فِي جَنَازَتِهَا تَجَارٌ ... يَكُونُ وَدَاعُهُمْ نَفْضَ النَّعَالِ³⁹

هكذا نجد صاحب في البدء يشيد بإبداع المتنبي واختراعه، ثم يجيء ببيت ضعيف - حسب رؤيته - شاهد على هذا الاختراع، وكان تعليقه على البيت مليئا بالتهكم، دالا على أن الذم هو الغرض، حيث بين التنافر بين المقام والمقال، وعدم مناسبة المعاني للسياق، مشبها تباعد طرفي الاستعارة في بيت المتنبي بالتباعد الذي بين الحداد والعرس، وحين أراد الموازنة بين هذا البيت وبين بيت آخر يراه ركيكا، اختار صيغ التفضيل الدالة على التفاوت في الحسن، رغم أن غرضه الموازنة بين الأبيات في القبح، لكن أسلوبه التهكمي جعله يؤثر إلباس القبح لبوس المدح، ليصطبغ نقده بسخرية التضاد، وطرافة المفارقة.

³⁹ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 47

وحيث أراد التعبير عن تقصير المتنبي في المعنى، وتهافت الفكرة في أحد أبيات القصيدة، قال إن الشاعر أعمل دقائق فكره، واستخرج زبدة أشعاره، ليوحي إلى القارئ بأن المتنبي عاجز عن الإبداع والاختراع.

ونجده في سياق آخر يستعمل لفظ الغوص ليعبر عن الفكرة نفسها، مشيراً إلى أن المتنبي بذل جهداً كبيراً لكنه لم يحرز إلا الإخفاق، يقول صاحب: "وله وقد غاص فأخرج جند له:

لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى اللَّذْ مِنْكَ هُوَ ... عَقَمْتُ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَاءً"⁴⁰

ولما أراد وصف لغته بالشذوذ ومخالفة القياس اللغوي، عبر عن ذلك بالضد، ووصف تصريفه بالحسن فقال: "ومن تصريفه الحسن وضعه التقييس موضع القياس في قوله:

بَشْرٌ تَصَوَّرَ غَايَةَ فِي آيَةٍ**تَنْفِي الظُّنُونِ وَتُفْسِدُ التَّقْيِيسَا"⁴¹

ويبين أحياناً وجه القصور في شعر المتنبي لكنه يصف هذا القصور وصفاً مدحياً، من ذلك وقوفه عند التعقيد الموجود في أحد الأبيات؛ لكنه يصفه بأنه لا يشق غباره، ولا تدرك آثاره، وهذه العبارات يوصف بها عادة ما اتصف بالتميز والإبداع، يقول:

"ومن تعقيده الذي لا يشق غباره ولا تدرك آثاره قوله:

وَلَلتَّرْكُ لِلإِحْسَانِ خَيْرٌ لِمُحْسِنٍ ... إِذَا جَعَلَ الإِحْسَانَ غَيْرَ رَبِيبٍ"⁴²

ويبدأ أحياناً بالضد من هذا الأسلوب حيث يبدأ بما يشبه المدح، لكنه سرعان ما يتخلص منه إلى الذم، فلا ينتظر إيراد النص المنتقد والتعليق عليه كما يفعل غالباً، ومن ذلك قوله:

"ومما انتصف فيه عند نفسه؛ وكان الباحث عن مديته، والكاشف لعورته؛ قوله:

⁴⁰ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 69

⁴¹ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 69

⁴² - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 51

رَمَانِي خِسَاسُ النَّاسِ مِنْ صَائِبِ أَسْتِهِ***وَآخَرُ قُطْنٌ مِنْ يَدَيْهِ الْجَنَادِلُ"43

وقد وقف الصاحب عند جل المعاني التي لم يوفق المتنبي في عرضها، فسخر سخرية لاذعة من الشاعر، ومن الأبيات التي أبرزت فيها، ولا يشفع للمتنبي إبداعه في أبيات أخرى، حتى ولو كانت الغرض نفسه، أو في الدلالة نفسها، لأن الصاحب لا يبحث إلا عن العيوب، ولا ينقب إلا عن المثالب؛ من أجل ذلك يضرب الذكر صفحا عن النصوص الكثيرة التي قالها المتنبي في الاعتزاز بالنفس، والتعالي وبعد الهمة، ويقف عند بيت يتيم لم ينبت المعني على أرض ألفاظه نباتا حسنا، فيشيد بترفع المتنبي وعلو همته على سبيل التهكم، ثم يعلق على البيت تعليقا فيه حدة وغضب، يتجاوز فيه النقد إلى السب والهجاء. يقول:

"ومن ترفعه وإفصاحه عن عظيم محله وإباتته عن علو همته قوله:

وَرَبَّمَا يَشْهَدُ الطَّعَامَ مَعِي ... مَنْ لَا يُسَاوِي الخُبْرَ الَّذِي أَكَلَهُ

وما أدري إلى أين ينخفض قائل هذا المقال في سقوط النفس والسفال"44

ورغم كثرة وصف المتنبي للحروب، وإبداعه في وصفها، ورغم كثرة النصوص الجميلة التي يشيد فيها بشجاعته وشجاعة ممدوحيه، وجين معاديهما، فإن الصاحب لم يحفل بكل ذلك، وشاء له حظه أن يعثر على بيتين عثر فيهما المتنبي، فجاء تصويرهما للحرب على غير شاكلة تصويره الجميل لها، فاهتبل الصاحب الفرصة، واغتمم الزلة، وجعل يسخر من المتنبي، مشيدا بفروسيته، وخبرته في الحرب على سبيل التهكم، وجاء تعليقه على البيتين ساخرا طريفا، متسائلا هل كان الشاعر في ساحة الحرب، أم كان في سوق لبيع التمور، مشيرا بذلك إلى تنافر الصورة الشعرية في البيت الثاني. يقول الصاحب:

" وكان الرجل محرباً فقال في صفة الحرب وما تنتج من رعب القلب:

43 - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص:70
44 - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص:71

فَعَدَا أُسِيرًا قَدْ بَلَّغَتْ ثِيَابُهُ ... بِدَمٍ، وَبَلَّ بِبَوْلِهِ الْأَفْحَادَا

فَكَأَنَّهُ حَسِبَ الْأَسِنَّةَ حُلُوءَةً ... أَوْ ظَنَّهَا الْبِرْنِيَّ وَالْأَزَادَا

فلا أدري أكان في حرة الحرب أم في سوق التمارين بالبصرة⁴⁵

ولما أراد نقد الغرابة والتعقيد اللفظي في أحد أبيات المتنبي، هدته السخرية إلى عد الغرابة المذمومة من باب حفظ الغريب الممدوح؛ فبدا كأنه يمدحه، وهو مدح باطنه فيه الذم إن لم يكن في ظاهره أيضاً، يقول صاحب:

" ومما دلنا به على حفظه الغريب قوله:

جَفَعَتْ وَهُمْ لَا يَجْفَعُونَ بِهَا بِهِمْ ... شِيمٌ عَلَى الْحَسَبِ الْأَغْرِّ دَلَائِلُ"⁴⁶

وحين أراد وصف استهتار المتنبي بالدين، وتحريفه لاسم أحد الملائكة المقربين، فإنه سمى أبياته سنية جماعية، إمعانا في السخرية، يقول:

" ومن أبياته السنية الجماعية قوله:

أَعْظُمْتَ حَتَّى لَوْ تَكُونُ أَمَانَةً ... مَا كَانَ مُؤْتَمَنًا بِهَا جَبْرِيْنُ"⁴⁷

وكان الشعراء يحرصون على براعة الاستهلال، وحسن الابتداء، وللمتنبي قصائد كثيرة أشاد النقاد بحسن مطالعها⁴⁸، لكنه أخفق في ابتداء بعض القصائد كغيره من الشعراء، فاتخذ صاحب ذلك مطية لانقاصه، والسخرية من تلك المطالع، من ذلك قوله مشيدا على طريقتة التهكمية بأحد المطالع:

" ومن ابتداءاته العجيبة قوله لسيف الدولة في التسلية عن المصيبة:

⁴⁵ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 66/65

⁴⁶ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 73

⁴⁷ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 60

⁴⁸ - لقد أشاد عبد العزيز الجرجاني بعدد من هذه المطالع يمكن النظر في كتاب: الوساطة بين المتنبي وخصومه، مرجع سابق، ص: 140/139/138.

لا يَحْزُنُ اللهُ الأَمِيرَ فَإِنِّي ... لِأَخِذُ مِنْ حَالَاتِهِ بِنَصِيبٍ"⁴⁹

ويقف أيضا عند مطلع قصيدة أخرى للمتنبّي لينتقده، لكن مقدمته التهكمية لم تقتصر على لمز أبي الطيب، وإنما تجاوزته إلى محبي شعره ومنتذوقيه، حيث يقول:

" ومن بدائنه الظريفة عند متعلقي حبله؛ وفواتحه البديعة عند ساكني ظله قوله:

شَدِيدُ البُعْدِ مِنْ شَرْبِ الشَّمُولِ ... تُرْنِجُ الهِنْدِ أَوْ طَلَعُ النَّخِيلِ

فلا أدري استهلاك الأبيات أحسن؛ أم المعنى أبداع؛ أم قوله (ترنج) أفصح؟"⁵⁰

ويقف عند مطلع آخر للمتنبّي لم يوفق فيه، فيبالغ في مدحه، والإشادة به مبالغة توحى بشدة استقباحه له، وتفوح منها رائحة السخرية والتهمك:

" ومن عيون قصائده التي تحير الإفهام، وتقوت الأوهام وتجمع من الحساب ما لا يدرك بالارتماطيين وبالاعداد الموضوعية للموسيقى قوله:

أَحَادٌ أَمْ سُدَّاسٌ فِي أَحَادٍ ... لِيُبَيِّنُنَا المُنُوطَةَ بِالنَّادِي"⁵¹

ويبدو أن درجة استقباح الصاحب لشعر المتنبّي تتجلى أحيانا من خلال درجة الإشادة الساخرة التي يسبغها على النصوص المنتقدة، فكلمة أَكْبَرَ قِيحِ النِّصِّ أَظْهَرَ الإشادة به، وبالعكس في مدحه بطريقته الساخرة، يقول ممهدا لإيراد أحد الأبيات المستقبحة:

" ومن أوابده التي لا يسمع طوال الدهر مثلها قوله في سيف الدولة:

لَنْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفًا لِدَوْلَةٍ**ففي النَّاسِ بُوَقَاتُ لَهَا وَطُبُولٌ"⁵²

⁴⁹ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشاف عن مساوي شعر المتنبّي، مرجع سابق، ص: 50
⁵⁰ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشاف عن مساوي شعر المتنبّي، مرجع سابق، ص: 54/53
⁵¹ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشاف عن مساوي شعر المتنبّي، مرجع سابق، ص: 63/62
⁵² - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشاف عن مساوي شعر المتنبّي، مرجع سابق، ص: 55

فقد جعل البيت من الأوابد وكأنه كذلك لتمييزه وتفردده، ثم وصف "الأوابد" بأن مثلها لا يوجد طوال الدهر مما يرشح دلالة التفرد والاختراع، وقد جاء تقديم البيت بهذه الدرجة من الإشادة تعبيراً عن شدة نفور الصاحب منه.

ووجد للمتنبى بيتين جمع فيهما أسماء عدد من آباء سيف الدولة، فقال بعد إيراد أبيات جمع فيها بعض الشعراء بعض الأسماء بطريقة ناجحة فنياً:

" فلما احتذى هذا الفاضل على طريقهم قال:

وأنت أبو الهيجا بن حمدان يا أبنه***تشابه مَوْلودُ كَرِيمٍ وَوَالِدُ

فَحَمْدَانُ حَمْدُونُ، وَحَمْدُونُ حَارِثُ***وحارثُ لُقْمَانُ، وَلُقْمَانُ رَاشِدُ

وهذه من الحكمة التي ذخرها ارسطاطاليس وأفلاطون لهذا الخلف الصالح، وليس على حسن الاستنباط قياس⁵³

يحاول الصاحب أن يبين تقصير المتنبى عن الشعراء الذين سبقوه إلى هذا الأسلوب، لكنه يؤثر تبيان ذلك بأسلوبه التهكمي، فيمدح الشاعر على سبيل السخرية، فيجعله فاضلاً في التقديم، ويجعله خلفاً صالحاً في تعليقه على البيتين، ثم يسخر من معنى الأبيات سخرية لاذعة؛ حيث يعدها بقية من الحكمة التي تركها أرسطو، وأفلاطون للمتنبى؛ وحين نعلم أن هذه الحكمة لا تعدو كونها جمعا لأسماء آباء المتنبى، وتبياناً لتشابهم في الكرم يتبين لنا حجم التهكم، وعظمة السخرية.

4 - المبالغة في السب والتجريح:

يقول هنري بريجسون مبيناً دور المبالغة في الإضحاك: "إن الكلام عن الأشياء الصغيرة كما لو كانت كبيرة يعني بشكل عام المبالغة، والمبالغة مضحكة عندما تمتد وخاصة عندما تكون منهجية،

⁵³-ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبى، مرجع سابق، ص: 53

وعندها بالفعل تظهر كوسيلة نقل وتحويل، فهي تضحك تماما، حتى إن بعض المؤلفين قد عرفوا الهزل بالمبالغة⁵⁴

ويقول عزت السيد أحمد متحدثا عن أسلوب التهكم: "وإما أن يقوم على المبالغة المقصودة في الوصف أو التقدير إلى حد الطرافة والشذوذ، وقد يكون وصف أشكال أو أفعال، أما موضوع التصوير فقد يكون موجودا في الموصوف حقا، وقد لا يكون، فإن كان موجودا كان التهكم بالعبث به تطويلا وتقصيرا وتقريبا وتبعيدا، تماما كما يفعل الرسام الساخر(رسام الكاريكاتير)، وإن لم تكن موجودة كان المراد منها تركيب صورة مسخية أو هزلية أو ساخرة... من خلال تناقض أبعادها، وعدم توافق تركيبها، وبذلك فالتهكم بعيد عن الموضوعية بالضرورة"⁵⁵

وقد اتكأ صاحب في كثير من هذه العبارات الهجائية على أسلوب السجع، وهو أسلوب ذو علاقة وثيقة بالسخرية، يقول سليمان جبران: "إن للمحسنات اللفظية، وخاصة السجع منها دورين هامين في الفكاهة: الأول أنها تجمل الفكاهة بما تضيف عليها من إيقاع عذب، فتجعلها أشد وقعا في نفس القارئ أو السامع، والثاني أنها تجعلها في كثير من الأحوال سهلة للحفظ والرواية"⁵⁶

قد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن المبالغة ستصادف قارئ كتيب صاحب في كل جزء، وقد لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إنها موجودة في كل صفحة منه، ولا شك أن القارئ سيكون لمس في المحاور السابقة أمثلة عديدة للمبالغة في السب والتجريح، لكن التقسيم المنهجي يفرض أحيانا أن يُفصل بين المتصل، ويقسم غير المنقسم.

لقد أشرنا سابقا إلى أحد الأبيات التي سخر صاحب منها، وعدها سنية جماعية مشيرا إلى ازوارها عن الدين، وميلها عن صراطه المستقيم، حيث ورد في البيت لفظ "جبريل" عليه السلام، لكن القافية اضطرت المتنبي إلى إبدال اللام نونا، فوردت "جبرين"، وللناقد الحق في ألا يستسيغ هذا الإبدال،

⁵⁴ - هنري برغسون، الضحك، ترجمة: علي ملقد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، دبت، د:ط، ص:83

⁵⁵ - أحمد عزت السيد، التهكم وفن الإضحاك عند الجاحظ، العالم العربي للنشر، عمان، ط/1، 2017م، ص:89

⁵⁶ - سليمان جبران، فن السخرية في الساق على الساق، مجلة الكرمل، أبحاث في اللغة والأدب، العدد:7، 1986م، ص:95

لكن نقده كان عنيفا، فيه مبالغة وشطط، حتى إنه لم يجد ما يشبه به هذا الإبدال في البغض إلا وجه الموت، يقول في تعليقه على البيت:

"وقلب هذه اللام بالنون أبغض من وجه المنون، ولا أحسب جبريل - صلى الله عليه - يرضى منه بهذا المجاز المحرم، والله - عز وجل - أعلم، هذا على ما في معنى البيت من الفساد والقبح"⁵⁷

ويتكرر في الكتيب هذا الأسلوب السجعي الذي يتجاوز فيه الناقد الاعتدال في النقد، إلى المبالغة في استقبح الألفاظ، وإلى الميل كل الميل عن القصد والإنصاف، يقول معلقا على قول المتنبي:

سَوَائِلُ تَسْوَالِ الْعَقَارِبِ بِالْفَنَاءِ *** لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وَصَهِيلٌ
" فلم يرض بأن سرق من بشار قوله:

وَالْخَيْلُ سَائِلَةٌ تَسْتَقُ غُبَارَهَا *** كَعَقَارِبٍ قَدْ رَفَعَتْ أذْنَائَهَا
حتى ضيع التشبيه الصائب بيت ألفاظ كالمصائب..."⁵⁸

هكذا يشبه صاحب ألفاظ المتنبي بالمصائب، ولعل الفرق بين نقد هذا البيت وبين نقد النون في البيت السالف، أن المشبه هناك هو نقل حرف واحد (نون جبرين)، فكفتها الموت، أما المنتقد في هذا البيت فهو عدة ألفاظ ومن ثم لا تكفي لوصفهم موتة واحدة، فجاءت المصائب المصاحبة للموت في الحقل اللغوي العام.

وتتكرر تعليقاته اللاذعة على ألفاظ المتنبي، فنجده يصف لفظ "الاسبطرار" بأنه من الخذلان الصفيق إذا ورد في سياق رثاء النساء⁵⁹، ويبالغ في نقد لفظ آخر فيذهب به التهكم والسخرية إلى امداح الصمت، ويجعل فضل السكوت مثل الدر إذا قيس بلفظي: "الدولات، وتدول" في بيت للمتنبي، أوردناه سابقا في سياق حديثنا عن الذم بما يشبه المدح.

⁵⁷ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 60

⁵⁸ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 55

⁵⁹ - جاء ذلك تعبيرا على قول المتنبي:

رَوَاقِ الْعِزِّ فَوْقَكَ مُسْبَطَرٌ *** وَمُلْكٌ عَلَيَّ ابْنِكَ فِي كَمَالِ

يمكن النظر في كتاب: الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 46

ويستثقل صاحب تكرر اللام في أحد أبيات المتنبي، فيذهب في استقباحها بعيداً، ويشتق لها اسماً جديداً (اللألاء) ابتغاء السخرية، وابتغاء إلحاقها بأفات اللسان، وأعراض العي، يقول معلقاً على قول المتنبي:

جَوَابُ مَسَائِلِي أَلَهُ تَطْيِيرٌ *** وَلَا لَكَ فِي سُؤَالِكَ لَا أَلَاءَ

" وقد سمعت بالفأفاء ولم أسمع بالألألاء؛ حتى رأيت هذا التكلف المتعسف؛ الذي لا يقف حيث يعرف"⁶⁰

وإذا كان صاحب في تعليقه على البيت السالف وصف المتنبي بالألألاء، فإننا نجده في مواضع أخرى من الكتاب يتجاوز مثل هذا المغمز، إلى السب الصريح، من ذلك أنه أراد نقد استعارة في أحد أبياته، فعبر من الاستعارة إليه، وحاول أن ينزع عنه لباس العقل والفضل، حيث يقول:

" ومن استرسالاته إلى الاستعارة التي لا يرضاها عاقل، ولا يلتفت إليها فاضل قوله:

فِي الْخَدِّ إِنْ عَزَمَ الْخَلِيطُ رَحِيلاً *** مَطَرٌ تَزِيدُ بِهِ الْخُدُودُ بِهِ الْخُدُودُ مُخُولاً"⁶¹

ووجد للمتنبي أحد المطالع غير المستجادة، فبالغ في استقباحه حتى جعله مما تفتح به طرق الكرب، وتعلق به أبواب الروح عن القلب، ثم تجاوز المطالع إلى الشاعر، وبالع في انتقاصه حتى أخرجه من زمرة الشعراء⁶²

وفي سياق حملته على ألفاظ المتنبي، ومبالغته في السخرية نجده يبتعد عن اللغة الواصفة، ويقرب من اللغة الشعرية، من ذلك ما نلاحظه في نقده للفظ "حينئذ" في أحد أبيات المتنبي⁶³، فقد بالغ في التعبير عن مجافاتها للمقام، ونفورها في سياقها حتى شبهها بالعيير (الحمار الوحشي) المعروف بالنفور والنشاط، بل ذهب إلى أنها أنفر من عير منفلت.

⁶⁰ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 59/58

⁶¹ - الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 59

⁶² - يقول صاحب: " ومن افتتاحاته التي تفتح طرق الكرب؛ وتعلق أبواب الروح عن القلب قوله:

أَرَاكَ كَذَا كُلَّ الْأَنَامِ هُمَامٌ *** وَسَخَّ لَهُ رُسُلَ الْمَلُوكِ غَمَامٌ

ولو لم يتكلم في الشعر إلا من هو أهله لما سُمع مثل هذا، ولكن الكلام قد جرى فيه مجرى الكلام في سعيد وبلال والخليدية والكتيفية"، يمكن

النظر في كتاب: الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص: 56

⁶³ - المقصود قول المتنبي: إِنْ كَانَ مِثْلَكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ *** فَبَرِنْتُ جَبْنِيذَ مِنَ الْإِسْلَامِ

يمكن النظر إلى البيت ونقده في المرجع السابق، ص: 50

وحيث أراد انتقاد التنافر اللفظي في أحد أبيات المتنبي التي تكرر فيها أحد الألفاظ تكررنا أخل بالفصاحة، عاد إلى معجم السخرية، وسخر من تكرر "العظم" سخرية لاذعة، فذهب أن الكلاب لو أطلقت على هذا البيت وهي جائعة، لوجدت في عظامه قوتا⁶⁴.

وتبلغ المبالغة أحيانا بالصاحب حدا يخرج من دائرة النقد، فينفلت منها، وتخرج لغته في مطابقتها للواقع من حيز الممكن إلى حيز المحال، حيث يصف لفظة واحدة للمتنبي وصفا لا قبل لها به، ويحملها ما لا طاقة لها بحمله، ومتى كان في مقدور لفظ واحد بالغا ما بلغ من القبح، وواصل حيث وصل من البشاعة أن يستطيع تكدير البحار الصافية، أو تهديم الجبال الراسية، وذلك ما ادعاه الصاحب في لفظ "المتديريها"؛ يقول معلقا على قول المتنبي:

أَسْأَلُهَا عَنِ الْمَتَدِيرِيهَا *** فَلَا تَدْرِي وَلَا تُدْرِي دُمُوعًا

" فإن لفظة (المتديريها) لو وقعت في بحر صاف لكدرته، ولو ألقى ثقلها على حبل سام لهذه، وليس لها في المقت غاية، ولا في البرد نهاية"⁶⁵

⁶⁴ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص:65، والبيت هو قول المتنبي:

عَظُمْتُ فَلَمَّا لَمْ تُكَلِّمْ مَهَابَةً *** تَوَاضَعْتُ وَهُوَ الْعُظْمُ عَظْمًا عَنِ الْعُظْمِ

⁶⁵ - ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم المشهور بالصاحب، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، مرجع سابق، ص:63

الخاتمة:

تعد السخرية من الأساليب التي انتهجها بعض النقاد في قراء النصوص الإبداعية، ابتغاء نقدها وابتغاء تبيان مساوئها، وقد حاولنا بحث هذه القضية من خلال كتاب صاحب ابن عباد الذي كان نموذجاً في هذا الأسلوب لا يدانيه أحد من معاصريه، ويمكن اختصار ما توصلنا إليه من نتائج في العناصر الآتية:

1 - أن أسلوب السخرية طريقة في إبراز مثالب النصوص، وقد اعتمد صاحب هذا المنهج من خلال الموازنة بين نصوص المتنبي، ونصوص غيره، فتارة يوازن بين نصوصه وبين غيرها من النصوص الرديئة، ليبرز تفوق نصوص المتنبي في الضعف، وتارة يوازن بينها وبين النصوص المستجادة ليبرز البون الشاسع بين شعر المتنبي وتلك النصوص المتميزة.

2 - أن هذا الأسلوب قادر على ترسيخ موضع الانتقاد في الذاكرة، لاعتماده على المفارقة، وأسلوب الذم بما يشبه المدح.

3 - أن أسلوب السخرية ذو قدرة على التنفير من النصوص التي لا يستسيغها الناقد، الشيء الذي تسهم فيه المبالغة في السب؛ فتضخيم العيوب وإبرازها بحجم أكبر من حجمها يبقيها حاضرة في ذهن المتلقي.

4 - أن صاحب كان صاحب ذوق أدبي رفيع، من أجل ذلك كان موفقاً في جل ما اختار من ساقط شعر المتنبي، ولولا هذه الخبرة الأدبية لما نجت أمثله من جيد شعر المتنبي على كثرته.

6 - أن أسلوب السخرية من الأدوات التي يمكن الاستفادة منها أحياناً في مقارنة بعض النصوص الحديثة؛ فهو الأسلوب المناسب لقراءة النصوص الموعلة في الركافة والضعف.

فهرس المصادر والمراجع:

1 - القرآن الكريم

- ابن سيده المصري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت:458هـ)، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، ط/1، 1417هـ/1996م،
- ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب (ت:385هـ)، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بغداد، ط/1، 1385 هـ / 1965 م
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي (711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط/3، 1414 هـ،
- الزوزني، أبو سهل محمد بن الحسن العارض (445هـ)، قشر الفسر، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط/1، 1427هـ/2006م،
- إبراهيم، طه أحمد، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، الفيصلية، 1425هـ/2004م
- ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب (385هـ)، الكشف عن مساوي شعر المتنبي، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بغداد، ط/1، 1385 هـ - 1965 م،
- ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ، 1979م،
- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط/4، 1983م،
- أحمد، عزت السيد، التهكم وفن الإضحاك عند الجاحظ، العالم العربي للنشر، عمان، ط/1، 2017م،
- الأمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر (ت:370 هـ)، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط/4، ج/2،

- الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء، الليثى، أبو عثمان(ت: 255هـ)، الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/2، 1424 هـ،
- الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي (392هـ)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط/1، 1427هـ/2006م،
- الحطيئة، ديوان الحطيئة، تحقيق: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط/2، 1426هـ/2005م
- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي (626هـ)، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، 1407هـ/1987م،
- الضمور، نزار عبد الله خليل، السخرية والفكاهة في النثر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رسالة الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، 2005م،
- الغزالي، شعيب بن أحمد بن محمد عبد الرحمن، أساليب السخرية في البلاغة العربية، دراسة تطبيقية تحليلية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، إشراف: عبد العظيم إبراهيم المطعني، 1414هـ،
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال،
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي(450هـ)، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، مرجع سابق، ص: 140/139/138.
- حسين، عبد الحلیم محمد، السخرية في أدب الجاحظ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط/1، 1397هـ/1988م.
- حمزة محمد، دلال، الأبعاد النفسية لنزعة التهكم في تشكيل ما بعد الحداثة، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد: 29، ج: 2، 2018م
- سليمان جبران، فن السخرية في الساق على الساق، مجلة الكرمل، أبحاث في اللغة والأدب، العدد: 7، 1986م،

- فتيحة بلمبروك، خطاب السخرية ودلالته في الشعر العربي المعاصر، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي،
مرتضى الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض (1205هـ)، تاج العروس
من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية،
- ناجي، فاتن حسين مفهوم التهكم في نصوص محمد الماغوط المسرحية، مجلة مركز بابل للدراسات
الإنسانية، المجلد:4، العدد:1
- ناجي، فاتن حسين، مفهوم التهكم في نصوص محمد الماغوط المسرحية
- هنري برغسون، الضحك، ترجمة: علي ملقد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،
د:ت، د:ط،